سيادة أو سيطرة الأفعال غير المنطقية على الحياة الاجتماعية .

ويرتبط السلوك غير المنطق بالرواسب والمشتقات . وهذان الأخيران يعدان مظهران للعواطف غير المتناهية ، والتى تشكل حالات نفسية بيولوجية فى المحل الأول . وعلى الرغم من أن باريتو قد اعترف بأنه من العسير التعرف على هذه الحالات على نحو مباشر ، إلا أنه قد كشف عن الطبيعة المتميزة لمظاهرها ، التى تتجلى فى الرواسب والمشتقات والسلوك الإنسانى . وهكذا يكون واضحًا أن باريتو قد اعتقد أن العواطف هى بمثابة غرائز أو ميول إنسانية فطرية ، لذلك أطلق على إحدى العواطف الأساسية « غريزة التكامل » Instinct of Combination . وهو يرى — من ناحية أخرى — أن الرواسب مرتبطة بالظروف المتغيرة التى تعيشها « الكائنات الإنسانية » . وهو يعنى بذلك أن الأفعال التى تتبدى العواطف من خلالها ، تعمل على تدعيم هذه العواطف ، بل إنها تثيرها عند الأفراد الذين لا تتحقق لديهم . كما أن العواطف تتحقق وجودها واستقرارها عن طريق استمرار الجماعات ودوامها ، ومن ثم تساعد هذه الجماعات على البقاء . على أن هذه الخصائص لا تعبر عن سمات مميزة لغرائز نظرية دائمة ، ولكنها تكشف على بعض مظاهر السلوك المكتسب (المتعلم) ، خاصة وأنه قد تطورت نظرية السلوك المتعلم فى علم النفس فى أيام باريتو . بيد أن هذه الحقيقة كانت مسئولة إلى حد ما عن غموض المصطلحات التى استخدمها .

ويذهب باريتو إلى أن بعض العواطف قد تدفع الأفراد إلى تبرير أفعالهم عن طريق صياغة نظريات غير منطقية ، يظن أصحابها أنها منطقية إلى حد بعيد . وفحص هذه النظريات يمكننا من التمييز بين ما هو عميق ودائم ، وبالتالى ما يعتبر عناصر هامة ، أى **الرواسب** ؛ ثم يمكننا من جهة أخرى من التعرف على ما هو سطحى ومتغير ، وبالتالى ما يعد عناصر غير هامة ؛ أى **المشتقات** . ومن اليسير أن نكتشف الرواسب بعد دراسة قضايا متنوعة متعلقة بهذا الموضوع ، نتمكن بها من استخلاص العناصر الدائمة . وتمكننا معرفتنا بالرواسب — التى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعواطف أكثر من المشتقات — من التعمق فى أسباب الأفعال الإنسانية . لأن الرواسب تعتبر أيضًا مجرد تجليات أو مظاهر ، بينما يتعين أن نبحث عن العملية — فى التحليل — فى أعماق العواطف — وعلى أية حال ، فبرغم أن هذه النظرية قد تبدو

غير صحيحة أو غير يقينية ، إلا أننا يجب أن نوافق باريتو على أن تفسير السلوك على أساس قبول ما يقوله الناس عن سلوكهم الفعلى ، كان مبدأ معترفًا به لفترة طويلة بين دارسى الحياة الإنسانية ، وإن كان — بالطبع — إجراء لا ينطوى على صدق علمى .

ويؤكد باريتو الفارق بين نظرته للأفعال الإنسانية ، وبين التفسير العقلى لها . فهذا التفسير الأخير يفترض أن الناس يتجهون نحو التفكير فى البداية ، أو أنهم يصوغون — بداءة — الأفكار والنظريات ، ثم يتصرفون وفقًا لها . إلا أن باريتو يذهب إلى أن السلوك يتبع عملية عكسية ؛ فالتصرف يسبق التبرير العقلى ؛ والمثال على ذلك أنه يخلص من مناقشته للنظريات الشائعة عن ظهور الملكية الخاصة بالعبارة التالية : « لقد كانت العائلة ، أو إحدى الجماعات العنصرية ، تشغل قطعة معينة من الأرض . . . ولذلك فإن الحقيقة المؤكدة هى استمرارها فى شغل هذه الأرض . . . ومعنى ذلك أن الملكية كانت — فوق كل احتمال آخر — هى الظرف السابق . . . على أى مفهوم أو تصور لقانون التوريث » (ص رقم ٢٥٦) . وهكذا ينتهى باريتو إلى أنه ليس ثمة علاقة سببية مباشرة بين النظرية والفعل . فكلاهما ينتج عن عواطف أساسية تبدو فى الفعل بطريقة دائمة أو ثابتة ، فى حين تتجلى العواطف على مستوى النظرية أو التبرير العقلى ، على نحو غير منظم . والواقع أن كل نمط سلوكى يستند إلى نظرية معينة ، إلا أن التبرير النظرى لكل حالة ملموسة يتحدد بطريقة فريدة ، ولذلك فهو لا ينطوى على قيمة كبيرة فى تحليل السلوك . ولقد كانت هذه النتيجة قضية رئيسية فى علم الاجتماع عند باريتو .

ويرى باريتو أن هناك ست فئات أساسية من الرواسب (وكل فئة تضم عدداً من الفئات الفرعية) . وهذه الفئات هى : أولا : غريزة التكامل ، وتعنى القدرة على الربط بين الأشياء . ثانيًا : راسب استمرار التجمعات ودوامها ، ويشير ذلك إلى الاتجاه المحافظ . وثالثًا : راسب ظهور العواطف أو تجليها فى أفعال خارجية والتى يدخل فى نطاقها صياغة التبريرات العقلية ، أو التعبير عن الذات ، رابعًا : راسب الألفة الاجتماعية Sociability ، أو الدافع نحو تكوين مجتمعات وفرض سلوك محدد . خامسًا : راسب التكامل الشخصى ، وهو الذى يعمل على إتيان أفعال تعمل على

استعادة التكامل إذا طرأ عليه تغيير مثل الأفعال التى تعتبر مصدراً للقانون الجنائى .

سادساً : الراسب الجنسى . ومن الملاحظ أن هذه الرواسب تتداخل مع بعضها فى الحياة الاجتماعية بصور مختلفة . فتحقيق التكامل بين راسبى التوازن واستمرار الجماعات — مثلا — يعمل على إيجاد قوى مركبة ذات أهمية اجتماعية كبيرة ترتبط بعواطف واضحة وقوية من النوع الذى يمكن أن نطلق عليه مصطلحاً غامضاً هو « مثال العدالة » .

والواقع أننا لا نكاد نعثر على تفسير أو تبرير يلائم تصنيف باريتو للرواسب . فالفئة السادسة وهى راسب الجنس تبدو غير متجانسة ، بحيث إنها بحاجة إلى أن تستكمل منطقياً براسب آخر هو الجوع . بينما الفئات الثالثة حتى الخامسة ترتبط بميل الأنساق الاجتماعية إلى الاحتفاظ بحالة توازنها واستعادته . أما الفئتان الأولى والثانية فنلاحظهما من خلال انتشارهما بين الناس ، كما أوضحنا ذلك . ولقد ذهب أحد المهتمين بدراسة باريتو إلى أن تصنيفه هذا يمثل « عملاً جاداً وهاماً لواحد من الرواد »(٤) . وعلى الرغم من الإضافات والتعديلات التى أدخلت على هذا العمل الهام إلا أنه من غير المتوقع أن يحاول الباحثون تطوير هذا الجانب من أعمال باريتو نظراً لما ينطوى عليه من أخطاء واضحة .

ولقد كان تصنيف باريتو للرواسب معتمداً إلى حد ما على دراسته لبيانات مستمدة أساساً من مؤلفين قدامى . فقد ذهب إلى أن هناك تراثاً هائلا يصور الحياة الواقعية عموماً ، وبالتالى فالتركيز على دراسة هذا التراث الكلاسيكى لا يفسح مجالا للتحيز . ولما كانت الرواسب هى القضايا الدائمة والعامة ، فمن اليسير اشتقاقها من التحليل الدقيق للتراث الكلاسيكى . وكل عنصر نختاره من هذه المصادر يتعين أن نفسره منذ البداية بأنه مظهر لعاطفة معينة ، ومن ثم تخضع العناصر الجزئية للمقارنة ، ثم تؤلف مجموعات من العناصر المتشابهة فئات محددة أو فئات فرعية . والواقع أن هذا الإجراء (والذى يصعب اعتباره خطوة متقدمة على ما يعرف الآن بتحليل المضمون المستخدم فى الدراسات الإمبيريقية للاتصال ، وإن كان يماثله فى أهدافه) هو أقرب شىء للمنهج الاستقرائى يمكن أن نعثر عليه فى أعمال باريتو .

---

(٤) L.J. Henderson, Pareto's Sociology, A physiologist Interpretation (1935), P. 58.

أما تحليل باريتو للمشتقات فكان أقل تفصيلا من معالجته للرواسب . فالمشتقات — كما أوضحنا — هى تجليات أو مظاهر سطحية ، أو تفسيرات لقوى كامنة فى الحياة الاجتماعية . وبعد أن نظر باريتو فى البداية للمشتقات من منظور يعكس الطابع الذاتى لهذه التفسيرات ، لخص أربع فئات أساسية من المشتقات على النحو التالى : أولا : مشتقات التوكيد ، والتى تؤكد الواقع والعواطف . ثانياً : مشتقات السلطة ، سواء تعلقت بالأفراد أو الجماعات أو العادات أو القوة الإلهية . ثالثاً : المشتقات المتصلة بالمبادئ والعواطف العامة (والتى تعمل كذلك على المحافظة عليها) . وأخيراً : مشتقات خاصة بالبراهين اللفظية ، مثل الاستعارات الأدبية والمماثلات . ولقد أوضحت الأمثلة المختلفة التى قدمها باريتو لهذه الأنواع العديدة من التفسيرات اللفظية للسلوك إمكانية تداخل هذه الفئات . ومع ذلك ، فليست هناك علاقة ارتباط وثيقة بين فئات الرواسب — التى عرضناها من قبل — وبين المشتقات ، فكلاهما مستقل عن الآخر .

دورة الصفوة :

يرى باريتو أنه على الرغم من أن الرواسب تتحقق عموماً فى كافة المجتمعات والظروف ، إلا أنها لا تنتشر بين الأفراد على نحو منظم ، كما أن توزيعها النسبى فى المجتمعات ، وخلال فترات التاريخ يخضع كذلك للتغير . وقد أفاض فى مناقشة التغير الاجتماعى المرتبط بالفئتين الأوليين للرواسب (غريزة التكامل واستمرار التجمعات) بوجه خاص . ومن ثم انتهت به دراسته إلى صياغة نظريته عن دورة الصفوة Circulation of Elite ، والتى تشكل إحدى القضايا النظرية الرئيسية فى علم الاجتماع باريتو . ويتألف الصفوة من الأفراد الذين يتميزون بقدرة عالية على الأداء مجالاتهم المتخصصة . وهناك فئتان أساسيتان من الصفوة هما : الصفوة الحاكمة تضم الأفراد الذين يؤدون دوراً بارزاً فى ممارسة السلطة السياسية بطريقة مباشرة مباشرة ، ثم الصفوة غير الحاكمة التى تتألف من أفراد لديهم القدرة ، وليسوا اكثر قوة . ويحتل تباين انتشار الرواسب بين الصفوات أهمية خاصة بالنسبة الاجتماعية يفوق مدى انتشارها بين الجماهير(٥) . وفى ضوء مبلغ سيطرة

---

(٥) هذه وجهة نظر تبدو متفقة بوجه خاص مع الفاشية .

الرواسب على الطبقة الأولى أو الثانية ، نستطيع أن نميز بين نوعين من الأفراد : الأول يمثل **المفكرون** ، Speculators والثانى يمثل **المحافظون** Rentiers [٦] . وحينما يسيطر المفكرون على الصفوة الحاكمة ، يمر المجتمع بتغير سريع نسبيًا ، بينما يكون التغير بطيئًا حينما يسيطر عليها المحافظون ، ويذهب باريتو إلى أنه يوجد لدى الصفوة ميل طبيعى نحو التناوب بين النوعين فى شغل مراكز القوة السياسية . فحينما لا تشغل إحدى هاتين الطبقتين مركز الحكم ، تتجلى دائمًا سمات تفوقها ، بينما على العكس من ذلك ، تتضح باستمرار جوانب النقص فى الطبقات الحاكمة . فإحدى الصفوات إذن — ولتكن مثلا صفوة المفكرين — ترتكب دائمًا أخطاء واضحة ، وهذا ما يؤدى إلى ضرورة استبدالها بطبقة المحافظين . ولكن هذه الطبقة الجديدة حينما تحتل مركز القوة السياسية ، تكشف بدورها عن أخطائها وجوانب ضعفها ، فتفسح المجال لطبقة المفكرين .

وهكذا تبدو أمامنا نظرية دورية للتغير الاجتماعى ، بحيث يكون للدورة وجهان أساسيان أحدهما تقدمى والآخر محافظ . فالتاريخ إذن — كما يؤكد باريتو — هو « مقبرة الأرستقراطيات » (ص رقم ٢٥٣) . ولقد أمكن التدليل على هذه النظرية — التى تشبه نظرية سان سيمون فى ضرورة تكرار الفترات الهامة — على طريق أمثلة مستمدة من التاريخ القديم والتراث الكلاسيكى . بيد أن هذه الأمثلة (كما أشرنا إلى ذلك فى معرض حديثنا عن سبنسر) لا تشكل دليلا منطقيًا . وحينما لا تتحقق هذه الأدلة ، يصبح من العسير أن نجد سببًا قويًا لأن نمنح هذه النظرية صدقاً عامًا ، وذلك على أساس أعمال باريتو نفسه .

والملاحظ أن تحليل باريتو لدورة الصفوة ، قد ترك تأثيراً كبيراً على العلماء الاجتماعيين المهتمين بدراسة طبيعة « الطبقات الحاكمة » ووظائفها ، وكذلك الأنواع الأخرى من الصفوات ، ومن الذين أولوا اهتمامًا خاصًا بدراسة الصفوة نذكر سان سيمون ، وموسكا Mosca صاحب الكتاب الذائع الصيت « الطبقة الحاكمة » The Ruling Class ؛ وبعض الدارسين المحدثين من أمثال هارولد لازويل Lasswell ، والمرحوم

---

(٦) تشير كلمة rentier بالفرنسية إلى الشخص الذى ينشد الأمن دائماً ، وبالتالى يستثمر مدخراته فى شراء السندات المالية .

س . رايت ميلز Mills ، وت . ب ، بوتومور ، Bottomore وسوزان كيلر Keller . وبالرغم من أن كتابات باريتو عن الصفوة كانت تعتمد — إلى حد كبير — على « الحدس » ، وأنها لم تكن متسقة — فى بعض الأحيان — مع القواعد العلمية التى تبناها ، إلا أنها لا تزال حتى الآن موضعاً للاهتمام سواء من جانب علماء السياسة أوعلماء الاجتماع (٧) .

تلخيص وتقويم :

ما هى فى إيجاز الإجابات التى قدمها باريتو للمشكلات الرئيسية فى النظرية السوسيولوجية ؟ لقد نظر باريتو إلى المجتمع باعتباره نسقاً يحقق توازناً ، وأن العناصر المادية لهذا النسق تتألف من الأفراد ، الذين يتعرضون لعدد محدود مما أطلق عليه « القوى » ، بحيث إن هذه القوى التى تتكون — فى المحل الأول — من العواطف والرواسب ، هى التى تحدد وضع النسق الاجتماعى . إلا أنه من الواضح أن هذا التصور لا يمنح للثقافة إلا دوراً ضئيلا جداً .

ووفقاً لهذا التصور تصبح الوحدة الأساسية للتحليل السوسيولوجى — فى نظرية باريتو — هى المظهر الفريد للقوى الكامنة التى تتميز بالدوام . ومعنى ذلك أن التحليل ينصب — فى المحل الأول — على الرواسب ، التى يعتبرها تجليات أو مظاهر لظواهر نفسية بيولوجية غير معروفة .

ويرى باريتو أن مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع هى مظهر للمشكلة العامة الخاصة بالعلاقة بين الجزء والكل فى أية نسق . وتتسق وجهة نظره هذه مع الاتجاه الوظيفى ، فأى تغير يطرأ على أجزاء النسق يؤثر فى الكل ، وعكس ذلك صحيح .

والواقع أن وجهة النظر هذه تنسجم مع رفض باريتو لكل صور التفسير السوسيولوجى القائم على عامل واحد ، والذى يختزل تفسيرات الحياة الاجتماعية إلى عوامل أو أسباب بعينها . ومع ذلك فقد قدم إلينا عدداً محدوداً من العوامل التى اعتقد أنها تحدد وضع

---

(٧) انظر على وجه الخصوص Gaetona Maosca James H. Meisel, The Myth of the Ruling Class: and Elite (Ann Arbor : University of Michigan Press, 1962); Harold D. Lasswell et al. The Comparative Study of Elites (Stanford: Stanford University Press, 1952); T. B. Bottomore; Elites and Society (New York : Basic Books, 1964); Suzanne Keller, Beyond the Ruling Class : Strategic Elites in Modern Society (New York : Random House, 1963); and S.E. Finer, The Sociological Writings of Vilfredo Pareto (New York : Praeger, 1966).